أثر العظماء فى التاريخ

للأستاذ نجم الدين حمودى

إن أثر الأفراد فى تغيير مجرى التاريخ من الموضوعات الطريفة التى جلبت اهتمام المفكرين فى كافة العصور . ولا عجب إذا وجدنا الفلاسفة يولون هذه المشكلة عنايتهم ، فيثيرون الجدل حولها . ومن الجدير بالذكر أن هذا الجدل جعل الفلاسفة ينقسمون إلى فئتين متناقضتين : فئة تقول : « إن التاريخ فى جوهره عبارة عن سير العظماء » ؛ أو بكلمة أوضح : « إن التاريخ من صنع الصفوة الصالحة من الذين يوجهون وعامة اجتماعية مستمدة من مزاياهم الشخصية[1] » . أما الفئة الثانية فتدعى عكس هؤلاء تماماً ، ولسان حالها يقول : إن العظماء نماذج كاملة للبيئة التى يعيشون فيها .

إن فيمن يعتنق نظرية تأثير العظماء فى سير التاريخ وقدرتهم على تغييره الكاتب الانكليزى « توماس كارليل » فى كتابه (الأبطال وعبادة البطولة) فيتحدث عن النبى محمد صلى الله عليه وسلم و « أوليفر كرومويل » ويجعلهما أمثلة للرجال العظماء الذين غيروا مجرى التاريخ . أما رأى « كارليل » فى نابليون فيختلف كل الاختلاف عن رأيه فى النبى محمد وكرومويل ، إذ أنه يجرده من صفة العظمة . ويشاركه فى هذا الرأى الكاتب الروسى « تولستوى » الذى يحلل شخصية نابليون بقوله : (إنه رجل خلقته الظروف والمصادفات التى تحكمت فى انتصاراته أول الأمر ثم عادت فسببت خذلانه واندحاره) .

ومن أبرز المؤرخين المعاصرين فى إنكلترا الذين شرحوا نظرية العظماء وأثرهم فى التاريخ السر « شارل أومان » أستاذ التاريخ فى جامعة أكسفورد الذى يعارض نظرية التطور التى فحواها : إن التاريخ سلسلة من الحوادث التدريجية الاعتيادية . وبهذا تتنافى هذه النظرية عن أثر العظماء وقدرتهم فى تغيير التاريخ فتجعل من أعمالهم صورة للأمور التدريجية الاعتيادية المحتمة الوقوع .

(١) على أدهم (المذاهب السياسية المعاصرة) مصر ١٩٤٠ .

إن السر « أومان » من مؤيدى نظرية العظماء ، ويدعم رأيه بأمثلة لأشخاص غيروا مجرى التاريخ دون أن يكونوا ممثلين لبيئتهم التى عاشوا فيها . وأول مثل يستشهد به هو النبى محمد (صلعم) فيقول : (لقد أخفقت فى محاولاتى الكثيرة لا يجاد مؤرخ واحد يستطيع البرهنة على أن النبى محمد (صلعم) كان وليد الحالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى كانت تسود الجزيرة العربية فى القرن السابع بعد الميلاد . ولم أجد بين المؤرخين أيضاً من يقدر أن يقول : لو لم يبعث النبى محمد (صلعم) لكان من الطبيعى أن يستعاض عنه بشخص يقوم بنفس المهام التى اضطلع بها . ويستمر السر « أومان » فى بحثه عن النبى محمد (صلعم) فيقول : (منذ القرن الثانى للميلاد حتى أواخر القرن التاسع عشر وجد عدد من الأنبياء أو الذين حاولوا التشبه بهم كظهور المهدى فى السودان ، إلا أن جميع هؤلاء لم يقوموا بأعمال خارقة كالتى قام بها النبى محمد الذى جعل أبناء الصحراء أمة تمكنت من المحافظة على المدنية وتقدمها فى نصف أرجاء المعمور .

يبلغ اعتداد السر « أومان » بنظريته الذروة عندما يستشهد بسيرة وليم الفاتح فيقول : (لقد لعبت بريطانيا العظمى خلال القرون الماضية دوراً مهماً فى تاريخ ومقدرات العالم . وإنى أؤكد جازماً أنه لولا مجىء وليم الفاتح لما تيسر لبريطانية أن تلعب هذا الدور فى الأوضاع العالمية ، وأن تاريخ بريطانية كان من المحتمل أن يكون شبيهاً بتاريخ الدول الاسكندينافية ، أى معزولاً عن السياسة الأوربية العامة لولا وليم الفاتح وانتصاره فى موقعة (هيستنكز) عام ١٠٦٦ . ولا غرو إذا قلنا إنه لو كتب لوليم الفاتح أن يندحر عوضاً عن (هارولد كود ويلسون) فى موقعة جسر (سنلاك) لبقيت بريطانية محافظة على عزلتها ولازمت عدم التدخل فى القارة الأوربية .

ونستعرض الآن رأى كاتب آخر يفوق السر « أومان » فى أعماق تفكيره وبحثه الفلسفى المركز ؛ وهذا الكاتب هو (جيكوب برخاروت) أستاذ التاريخ بجامعة « بزل » فى سويسرة بين عام ١٨٦٥ ، ١٨٨٥ . يبتدئ (برخاروت) بالقاء نظرة عامة على مفهوم كلمة العظمة والغموض الذى يكتنف ماهيتها لعدم وقوعها ضمن الأشياء المادية التى يمكن وزنها وقياسها ،

فلا هي هبة حتى يعرف مصدرها ، ولا هي منحة حتى يشار إلى مانحها ؛ وعلى هذا الأساس فإن الحكم على عظمة الأشخاص حكماً عادلاً أمر من الصعوبة بمكان عظيم .

ويعتقد (برخاروت) أن من أهم الصفات اللازمة للعظمة أنها وحدة فريدة غير ممكنة التعويض . ولهذا فالرجل العظيم هو ذلك الشخص الذي لولا وجوده لما تم تنفيذ جزء مهم من الأعمال الخطيرة في تلك الحقبة من الزمن والمكان اللذين عاش فيهما . ويتعرض (برخاروت) إلى المثل السائر « ليس هناك فرد لا يمكن تعويضه فيقول : (نعم إن هذا المثل يصدق في أكثر الحالات وأعمها ، إلا أن أولئك الافراد الذين لا يمكن تعويضهم هم العظماء ، ويكونون عادة أقلاء وسيبقون كذلك أو ربما يقلون .

ولا شك أن التقدم الذي بلغته الإنسانية في المضمار الحضاري من علوم وفنون وآداب أصبح ممكناً بفضل جهود نفر من العظماء الذين سخروا مواهبهم في سبيل تحقيق هذا التقدم . وإن من يدرس آراء (برخاروت) بصورة دقيقة يلاحظ أنه يميل إلى أن العظمة تتمثل في الفلاسفة والفنانين فقط ، فيقول في سياق بحثه : إنني لا أعد المخترعين والمكتشفين من العظماء لأن ما ينتجونه يمكن الوصول إليه في يوم من الأيام ، أما الفلاسفة والفنانون فلا يمكن أن يستعاض عنهم بصورة مطلقة . فلو صادف أن مات رفائيل قبل نضوجه الفني لما خرج في العالم شخص مثله يتمكن من رسم لوحته الخالدة « تجلي المسيح » . ومن البديهي أن يكون تصوير العاطفة والخيال ، وتجسيد الوحي والالهام في هيئة جميلة ، وإظهارها بشكل آية فنية رائعة تكشف النقاب عن مواطن الجمال ، ليس بالأمر الهين ؛ لأن إعادة خلق الأفكار وتجسيدها في مظهر فني لا يقدر أن يقوم به إلا خالق الفكرة نفسه.

خاتمة :

أعتقد أن الآراء التي بينتها حتى الآن تكفي لإعطاء فكرة عامة عن النظرية التي تقول : (أن التاريخ سلسلة من سير العظماء) أما النظرية المعاكسة التي من أبرز زعمائها « سبنسر » فتقول إن الإنسان خاضع لمحيطه ويتطور بتطوره . وإذا ما تعارضت ميول الفرد مع سير الحوادث تبددت وزالت ولا يبقى إلا آثار التطورات الاجتماعية العامة الوقوع . ويدعى أصحاب هذه النظرية — نظرية التطور — أن الأعمال العظيمة التي استطاع أبطال التاريخ أن يقوموا بها لم تتيسر لهم إلا عندما اتجهت إرادتهم وميولهم نحو تحقيق الرغبات التي كانت ضرورية لتطور المجتمع . لذلك فإن التطور المادي هو أساس كل شيء في التاريخ ، وكل الحوادث التاريخية بما فيها سير الأبطال تتمشى وسنة الطبيعة بدون استثناء

وبعد أن استعرضت بصورة مجملة آراء كل من أصحاب النظريتين أود أن أذكر بأن كلا الفريقين على الرغم من الحقائق التي يبينوها كانوا مغالين في نظرياتهم ، والمثل على ذلك ما ذكره السر « أوهان » عن النبي محمد (صلعم) ، فمع أنه عظيم حقاً إلا أن ذلك يجب أن لا يحجب عنا حقيقة واقعة وهي لو لم تكن الظروف مهيئة لقبول دعوته ، ولو لم تكن هناك عوامل كثيرة ساعدت على نشر رسالته لما كان له هذا التأثير على مجرى التاريخ . والكلام نفسه يقال عن وليم الفاتح ، إذ أن إنجلترة لنواة بريطانيا كان في طريق التحقيق قبل ظهوره .

أما جهة نظرية التطور فليس من المعقول أن تفسر جميع حوادث التاريخ بتفسيرات مادية صرفة وتهمل أثر الشخصيات الفذة التي أثرت في سيره . ولهذا فالنظريتان إذ فرقتا كلا منهما على حدة تفشلان في تفسير الحوادث التاريخية وأثر العظماء فيها ؛ ولكن إذا جمعناهما معاً وشكلنا نظرية ثالثة تجعل العظماء يؤثرون على الظروف ويكيفونها بحسب أهوائهم ، وفي الوقت نفسه تجعل الظروف تؤثر على العظماء وتتحكم في مسير أعمالهم تكون قد قربنا كثيراً من الحقيقة .

نجم الدين الحمودي
سكرتير مجلة سومر — بغداد

الاستاذ محمود الخفيف
يقدم
أحمد عرابي
ثمنه ٥٠ قرش